

- أجل، من غير أي شيء من هذا. سوف نرحل كما يرحل الحكماء.

كان «الصوري» سيقول «كما يرحل المجانين». ولكن كيف السبيل إلى مدّ الجسور عندما يكون عدم التفاهم يمثل هذا البؤس؟ ومن أي طرف يكون الحجاج؟.

لقد انطلق «ماني» وأبوه وصديقه إذن بلا أي جهاز سوى مطاياهم. ومع ذلك فإن «مالكوس» لم يتمكن من الامتناع عن أن يحمل بكرة مخبأة تحت ثوبه. غير أن الفرصة لم تسنح له قط طوال الرحلة لحلّ خيطها. فما إن كانوا يجتازون باب مدينة، سواء كانت (حلوان) أو (كنغوار) أو (أرتكساتا)، أو أوضع بلدة، حتى كان الناس يحتشدون حولهم، بدافع الفضول قبل كل شيء، نحو كل غريب؛ ثم إنه ما إن كان «ماني» يبدأ بالتبشير حتى كان جمهور يحتشد للاستماع إليه. وعندما كان ابن (بابل) يجهل كلام الموضع الذي هو فيه، كان رجل من الحضور يتدب نفسه ترجماناً، وكان ذلك الرجل، أو غيره، يتوسل آخر النهار إلى المسافرين بأن يشرفوه بالمبيت في منزله.

وعند كل وجبة كان الوجهاء يتشاجرون لاستضافة الزوّار إلى موائدهم؛ وعلى امتداد النهار، وما دام «ماني» يتحدث، كان النساء يتوافذن حاملات الفاكهة والأشربة الطازجة له ولصاحبه ولستمعيه.

وكان من عادة «ماني» قبل أن يقطع الخبز أن يقول هذا الدعاء القصير: «أيها الربّ، لقد لزم لتحضير هذه الوجبة انتهاك التربة والنبات وغيرها من المخلوقات. بيد أن الذين فعلوا هذا لم يكونوا ينوون إلا تغذية «النور» الذي في الإنسان، وإلا إتاحة البقاء لـ «كلمتك».

ثم كان يأخذ بتوزيع الطعام على من حوله وكأنه ربّ المنزل، مكتفياً لنفسه بقليل من الخبز وبعض الشار. وكان يحبّ البطيخ بشكل خاص، وإذا سئل عن سبب ذلك شرح أنه لا يجتمع في أي غذاء مثل هذا القدر من «النور»: «لاحظوا البطيخة، إن عيونكم لتفرح بلونها، وأنفكم بعطرها الخفيّ، ويدكم تداعب قشرتها الصلبة والناعمة، ولستم في حاجة إلى الشرب في الوقت نفسه،